قمة القاهرة: انعطاف في النهج السياسي العربي

جعل من العراق الخاسر الوحيد

من المفارقات ان يكون غزو صدام حسين للكويت سببا في تعطيل مؤسسة القمة العربية لاكثر من ست سنوات، وان يكون لأنتخاب نتانياهو رئيسا للحكومة في اسرائيل فضل انعقادها مجددا.

البيان الختامي: خطاب عربي معتدل

ان قمة القاهرة (21-22 حزيران 1996) التي شاركت فيها احدى وعشرون دولة عربية، باستثناء العراق، اتخذت من "السلام ولم الشمل" شعارا لها وجدولا لاعمالها، واستطاعت الخروج ببيان ختامي توفيقي تجاوز مطبات الانفجار والاختلاف.

جاء البيان معتدلا في لغته التي تحاشت الادانة او التهديد او الرفض، ومتوازنا في مراعاة الاختلافات العربية العربية. فراعى الاردن الذي يشكو من اعمال تخريب مصدرها سورية، وذلك بالاشارة الى "الالتزام بمبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية لاية دولة"، ولكن بذات الوقت دعم سورية بالاعراب عن "القلق" من الاتفاق العسكري التركي-الاسرائيلي. واذا كان لابد من ذكر تركيا بالاسم بشأن الاتفاق العسكري مع اسرائيل فان اسم ايران ورد كذلك، ولكن في كلا الحالتين كانت الاشارة مخففة بعبارات مثل "القلق" و "الدعوة" وليس هناك ادانة او تهديد.

وبدلا من تأييد سوريا بوقف التطبيع مع اسرائيل، ربط التطبيع بتقدم عملية السلام بما يضع حدا "للهرولة" التي تخشاها سورية.

وكان خطاب القمة واقعيا بتكريس السلام خيارا استراتيجيا (خاصة في غياب خيار الحرب اصلا) وجعل من وحدة الموقف العربي ورقته الضاغطة على اسرائيل من اجل ربط التطبيع بالانسحاب من الاراضي المحتلة ضمن صيغة الارض مقابل السلام. ولم يستجيب اي طرف عربي لاغراء المزايدة في معاداة اسرائيل بأمل تسديد حسابات عربية عربية، الامر الذي كان سيفجر المؤتمر الى محاور متصارعة تعفي اسرائيل من مسؤولية وتبعات السلام ويعطيها دور المرجح في التناقضات العربية، كالتحالف مع الاردن ضد سورية.

وقد خاطب بيان القمة امريكا واوروبا بقدر ما خاطب اسرائيل، عندما تمسك بالشرعية الدولية واعتماد "السلام العادل والشامل هدفا وخيارا استراتيجيا" بما يضمن "الامن والتوازن المتكافىء لجميع دول المنطقة وفقا

للمبادىء التي اتفق عليها في مؤتمر مدريد" ذلك المؤتمر الذي عقد بمشاركة حكومة ليكودية.

ومادامت امريكا راعية للسلام وبالتالي طرفا اساسيا في عملية السلام فان ورقة العرب في كسبها هي في مد الجسور وليس في قطعها، واستجابة قادة العرب لنداء واشنطن بعدم غلق الباب تضع الكرة في الملعب الامريكي. واصبحت حكومة الليكود هي "حكومة اللاءات الثلاث" (تذكير بمؤتمر اللاءات الثلاث في الخرطوم)، وهي لا للدولة الفلسطينية، ولا للانسحاب من الجولان، ولا لوقف الاستيطان. ان هذا بدون شك تحول نوعي في الخطاب السياسي العربي من الانفعال والتشنج الى الروية والتعقل.

الشعور بالرضا

ساعدت اللقاءات الجانبية بين اطراف النزاع العربي العربي، والتي رعتها مصر، على خلق مناخ سياسي ساهم في مصالحات وان لم تحقق حلا لكل المشكلات. فقد شهدت القاهرة اكثر من 70 لقاء ثنائيا بين معظم القادة العرب وكان اهمها لقاءات الاسد مع كل من الملك حسين وياسر عرفات، بعد انقطاع دام اكثر من ثلاث سنوات.

فبعد مخاوف من تفجر الصراع السوري-الاردني، خرج رئيس الوزراء الاردني ليقول عن القمة: "حققت نجاحا كبيرا وكانت بداية لعمل عربي مشترك"، كما اشير فيما بعد الى تشكيل لجنة تحقيق للبحث في "الاتهامات" الاردنية لسورية حول عمليات ارهابية مصدرها دمشق، ولم يستبعد الكباريتي لقاء في المستقبل القريب بين الملك حسين والاسد. وافادت فرانس برس (25/6/96) عن مصدر رسمي في القاهرة ان الاردن وسورية يعتزمان "مناقشة الملفات كلها بدءا بالسلام مع اسرائيل مرورا بملف العراق وما يسميه الاردن بملف الارهاب انتهاء بملف العلاقات الاردنية التركية".

وعكست الصحافة الاردنية هذا الشعور بالرضى، فكتبت صحيفة "الدستور" الاردنية بتاريخ 24/6/96: "انتصر الطرح الاردني ازاء مجمل القضايا مثار البحث وفاز المنطق الاردني وجاء البيان الختامي لمؤتمر قمة القاهرة معززا للتوجه الاردني . . واذا كانت هذه القمة قد صورت انها ستكون بمثابة نفخ للاردن واننا سنحشر في مواقف دفاعية ونضطر لتبرير مواقفنا فقد جاءت النتائج على عكس ما روجه البعض تماما".

اما على الصعيد السوري فقد اعتبرت الاوساط الرسمية والاعلامية نتائج القمة "انتصارا لمواقف سوريا القومية"، وكتبت صحيفة "الثورة" الرسمية بتاريخ 24/6/1996 ان قراءة البيان الختامي الصادر عن القمة "تؤكد ظهور موقف عربي موحد تجاه كل المفردات التي كرستها المواقف العربية السورية في شأن الثوابت الوطنية والقومية التي دخلت سورية على اساسها عملية السلام وقبلت بمؤتمر مدريد" لعام 1991.

ووجد الوفد الفلسطيني بالبيان غيثا هو بامس الحاجة اليه، عندما اكد القادة العرب "ان القضية الفلسطينية جوهر الصراع العربي-الاسرائيلي"، وفي هذا التزام بالقضية الفلسطينية بعد ان ساد الفلسطينيين شعور عارم بتخلي العرب عنهم. ووصف نبيل شعث اول اجتماع لعرفات مع الاسد منذ عام 1993 بانه كان "ايجابيا ووديا وبناء وفتح في رأينا صفحة جديدة في علاقات استراتيجية وهامة"، مشيرا الى ان عرفات سيتبع لقاءه مع الاسد بزيارة لدمشق.

وحتى المعارضة الفلسطينية رحبت بنتائج القمة، فقد اعتبرت الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين المعارضة لاتفاقية اوسلو بيان القمة "خطوة في الاتجاه الصحيح نحو اعادة التوازن للموقف العربي".

مصر . . والزعامة العربية

اذا كانت قمة بغداد لعام 1978 الغت دور مصر القيادي فان قمة القاهرة 1996 اعادت لمصر هذه المكانة، ومن المفارقات ان تصبح بغداد واطروحات الرفض العربي هي الغائبة الان.

وقد انهت حرب الخليج الثانية نهائيا تهديد العراق لمكانة مصر العربية، ولكن مصر وجدت نفسها بعد ذلك تواجه تهديدا اخطر لمكانتها في المنطقة من قبل اسرائيل، اذ استطاعت الاخيرة بزعامة حزب العمل ان تهمش الدور المصري في عملية السلام مع الدول العربية من خلال التوصل الى اتفاقات مباشرة مع منظمة التحرير الفلسطينية والاردن، كل على انفراد، دون وساطة او دور لمصر في ذلك. كما نجحت اسرائيل في اقامة علاقات دبلوماسية وتجارية مباشرة مع عدد اخر من الدول العربية وخاصة الخليجية.

ورأت الاوساط المصرية في "الشرق الاوسط الجديد" الذي كان يروج له بيريز سلبا لدور مصر القيادي لصالح منظومة اقتصادية تجعل من اسرائيل الطرف الاهم اقليميا، وجاء الاتفاق العسكري الاسرائيلي التركي الاخير ليذكر مصر بحلف بغداد (1955)، الذي رأت فيه تهميشا لدورها انذاك.

وهكذا يمكن القول بان مصر وجدت في مجيء الليكود المتصلب للحكم في اسرائيل "نعمة" ((Bliss in disguise، لفرملة الانفراج لصالح المواجهة مع الفلسطينيين والسوريين الامر الذي اعاد لمصر اهميتها في التصدي لعملية السلام او المواجهة. وان نهج الليكود المتصلب هو الذي دفع بعرفات مجددا في احضان مصر كما الحال قبل اوسلو بما سيعطي مصر هامشا اكبر في علاقاتها مع اسرائيل.

وسعت مصر بعد حرب الخليج الثانية لاقامة علاقات مع كافة الدول العربية بما فيها ليبيا والعراق، رغم انزعاج واشنطن، بما اعطى مصر اليوم دورا فريدا كوسيط لامريكا مع تلك الدول. وتجلى هذا الدور في نجاحها في عقد القمم المصغرة حيث كانت حلقة الوصل بين سوريا والسعودية من ناحية، والاردن والسلطة الفلسطينية من ناحية اخرى، الامر الذي مهد لعقد قمة القاهرة.

توجت مصر "الشقيقة الكبرى" في قمة القاهرة زعامتها، على انغام الاغاني القومية "الناصرية" التي بثتها محطات الاذاعة والتلفزة المصرية، وتحدثت الصحافة المصرية عن نهاية "حقبة الانكسار القومي".

اثار "البروز" المصري تحفظات المغرب الذي رأى في تحرك مصر تجاهل لدور المغرب المتواصل في عملية السلام العربية الاسرائيلية، ومع ذلك شارك المغرب وان غاب الملك الحسن.

العراق الخاسر الوحيد في قمة القاهرة

قال مسؤول سوري في حديث مع مراسل فرنس بريس (25/6/996) ان "ليس في النتائج التي اسفرت عنها الاجتماعات خاسر". قد يكون هذا صحيحا فيما يتعلق بالمشاركين بالقمة لان الخاسر الحقيقي هو العراق الذي لم يدع اصلا للقمة. ولتجاوز اشكاليات قانونية قام الرئيس مبارك بتوجيه الدعوة وليس جامعة الدول العربية التي كانت ستضطر لدعوة العراق.

رغم ان عددا من الدول العربية لم تمانع بل بعضها حبذ مشاركة العراق، الا ان الاصرار السعودي والكويتي والضغط الامريكي جعل الرئيس مبارك بين خيار قمة بدون مشاركة العراق، او عدم عقد القمة اصلا.

فجاء انعقاد القمة بدون العراق نصرا سعوديا وكويتيا، ولكن نصرهما كان اكبر في تبني القمة الفقرة الخاصة بالعراق، التي طالبت بغداد بعدم انتهاج اية سياسات عدوانية لاستفزاز جيرانها "العرب" (دون الاشارة لبقية دول الجوار)، واستكمال تنفيذ العراق جميع قرارات مجلس الامن، بما في ذلك الافراج عن كل الاسرى والمحتجزين من الكويتيين ورعايا دول اخرى. واعادة الممتلكات والالتزام بآلية التعويضات، وحتى الأشارة الى رفع الحصار عن العراق، والتي طالبت بها بعض دول المغرب العربي، صيغت بطريقة حملت "الحكومة العراقية المسؤولية عنها". ولم تفلح محاولات الجزائر واليمن والمغرب في لجنة الصياغة في تعديل الفقرة المذكورة، بينما لم يناقش الفلسطينيون والاردنيون هذه الفقرة ولزموا الصمت. ان هذه الفقرة تعني عمليا استمرار الحصار الاقتصادي على العراق، الامر الذي يستجيب لرغبة السعودية والكويت بابقاء العراق بعيدا عن اسواق النفط العالمية من جهة، مع استمراره ضعيفا مشلولا من جهة اخرى، اذ ليس من مصلحة السعودية التي تعاني من عجز مالي مزمن يصعب تجاوزه بسبب سياسة التبذير وضغوط امريكا لشراء مزيد من السلاح، ان ترى عودة النفط العراقي للاسواق العالمية. لقد كانت ولاتزال السعودية المستفيد الاول من غياب العراق النفطي وذلك باستحواذها على معظم حصته في السوق النفطي.

ان مجرد التلويح بعودة محدودة للنفط العراقي بحدود 700 الف برميل يوميا (القرار 986) يهديد بانخفاض حقيقي لسعر النفط، فكيف الحال بعودة العراق الى طاقته السابقة التي تجاوزت ثلاثة ملايين برميل يوميا قبل حرب الخليج الثانية، عندها ستواجه السعودية خيارين احلاهما مر: هبوط شديد للاسعار او القبول بخفض الانتاج وفي

كلا الحالتين ستكون الرياض هي الخاسرة، الامر الذي يصعب على امريكا قبوله وهي المستفيد الاول من النفط والعوائد المالية السعودية، كل هذا يجعل غياب العراق النفطي من خلال استمرار الحصار خيار السعودية وامريكا الذهبي.

لم يكن الشأن العراقي على رأس اولويات قمة القاهرة بحجة الانشغال في قضية "السلام ولم الشمل"، وبالتالي اعفت القمة نفسها من مواجهة مسؤولياتها تجاه الشعب العراقي، ولكن في الوقت نفسه طالب البيان "برفع العقوبات المفروضة على الجماهيرية العربية الليبية"، واعرب القادة العرب عن "بالغ قلقهم ازاء الاضرار البشرية والمادية التي لحقت بالشعب العربي الليبي من الاجراءات القسرية المفروضة عليه بموجب قراري مجلس الامن". كما اعرب القادة عن "مواساتهم للشعب اليمني الشقيق" على ما اصابهم من "آثار الفيضانات" وناشدو المنظمات الدولية بان تقدم "كل اشكال الدعم والمساندة" لليمن.

وعندما ارادت بعض الدول (كالجزائر، المغرب، واليمن) مد يد المساعدة للعراق اصطدمت بالرفض السعودي والكويتي.

بعد كل هذا من حق المواطن العراقي ان يتسأل: ماذا قدمت القمة له؟

فاذا كان صدام حسين هو الخصم، فان غالبية الشعب العراقي تشارك القمة مشاعرها، ولكن ليس في قرارات القمة مايميز بين الحاكم والشعب. وقد يكون في عدم دعوة صدام حسين للمشاركة في القمة مايدغدغ فصائل المعارضة العراقية التي معظمها-بالاساس- اسير القرار الدولي والاقليمي.

ولكن ماذا عن استمرار معاناة الشعب العراقي من الاضطهاد السياسي والحرمان من حقوق الانسان، وقبل هذا وذاك من الخبز والدواء، الذي ذهب ضحيته للان اكثر من نصف مليون طفل عراقي؟؟ لقد جاء بيان القمة خاليا من اي اجابة، مكتفيا بتكرار مقولة "تطبيق جميع قرارات مجلس الامن"، ولسان حال المواطن العراقي يقول: اذا امريكا والغرب وانتم يا قادة العرب لم تستطيعوا فرض تطبيق هذه القرارات على النظام العراقي فكيف يمكن للشعب العراقي الجائع والمقموع ان يحقق ذلك؟

ان حديث بعض القادة العرب اليوم عن "معاناة الشعب العراقي" يذكرنا بحديثهم بالامس عن "فلسطين الحبيبة" التي ضاعت !!!

(الملف العراقي، العدد 55 - تموز 1996)

❊ ❊ ❊